بول جاكو

«لنكن حذرين أشد الحذر فى العمل السرى وليكن شعارنا ما لا ينفع يضر».
بول جاكو

بحثت عنه طويلاً. وفى باريس حيث كان يقيم التقينا فى مقهى اللوكسمبورج أمام واحدة من أجمل حدائق العالم.. طويل ممشوق القوام لا يمكنك أن تحدد عمره ولا حتى على وجه التقريب، لكننى كنت أعلم أنه مولود فى ١٩٠٥ أى قبل ٦٨ عاماً من المقابلة. وكنت أعرف أنه سويسرى الجنسية ومهندس ابن مهندس شهير. وفيما نقتسم الكرواسون والقهوة باغته بسؤال «والتر لا كور فى كتابه (الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط) قال إنك كنت ممثلاً للكومنترن فى مصر فهل لك أن تحدثنى عن هذه التجربة؟». انتفض الرجل، دق المائدة بقبضة فتى فى العشرين وقال: «أؤكد لك أن هذا غير صحيح وكذب.. كذب.. كذب»، وبعد أن هدأ باغته بسؤال آخر: «يتكرر اسمك دوماً على أنك مؤسس ذلك التنظيم الشيوعى متعدد الأسماء واسمه الأشهر هو طليعة العمال»، ومرة أخرى يغضب الرجل ويؤكد: «أنا مصمم وأؤكد أننى لم أؤسس أى تنظيم، أنا وضعت البذور وتركتها تنمو، أنا كنت من الناحية المبدئية ضد أن يقوم أى أجنبى بتأسيس أى تنظيم مصرى، أنا أقرر وبوضوح أن تاريخ هذه المنظمة قد بدأ بعد أن تنحيت أنا عن العمل المباشر. لقد عملت فى مصر عشر سنوات من النضال الديمقراطى والماركسى بهدف نقل الفكر الماركسى إلى عدد من المصريين، وهذا هو كل دورى وبعد ذلك تركتهم يفعلون ما يشاءون».

وبعد هذين السؤالين الاستفزازيين بدأ الحوار سهلاً. ابتسمت وقلت معتذراً: إن هذين السؤالين هما مجرد حيلة تعلمتها من أستاذى الألمانى فبهما يكون الحوار العادى قادراً على فتح مسام الذاكرة وعلى تقليل حرص الذى تحاوره فيقول كل ما تريد.

ابتسم ابتسامة أبوية وقال: أعرف، وعلى أى حال أنا جاهز. قلت تفضل:

«أبى كان مسيحيا متعصبا وكان مهندس كهرباء كبيرا، عمل لدى الحكومة المصرية ثم أسس شركة كبيرة للمصاعد. أنا سافرت إلى ألمانيا بهدف دراسة الموسيقى وهناك التقيت برفاق من الحزب الشيوعى الألمانى. لم أنضم للحزب، كنت فقط ضمن فرقة من الدعاة يقتصر نشاطنا على الدخول إلى المقاهى وإلقاء الخطب والأناشيد الثورية. وفى عام ١٩٣٢ عدت إلى مصر مزمعاً الإقامة لفترة وجيزة، ثم أعود لألمانيا، لكن أبى أرسلنى لأشرف على مشروع تقوم به شركته فى أسوان كجزء من عملية بناء الخزان، وأقمت فى إدفو مصطحباً معى كتاب «رأس المال» لكارل ماركس وكنت قد أحضرت معى من ألمانيا مجموعة لا بأس بها من الكتب الماركسية، كنت أقرأ وأجد أمام عينى البؤس والفقر والقهر وقررت أن أفعل شيئاً من أجل هؤلاء الفقراء. وفى هذه الأثناء وصل هتلر إلى الحكم وأصبح مستحيلا أن أعود للالتقاء بمحبوبتى الجميلة..» وابتسم قائلا: «إنها الموسيقى وليست فتاة، وعدت إلى القاهرة وقررت أن أبحث عن الشيوعيين المصريين وأن أعمل معهم، لكنهم كانوا فى ذلك الوقت فى محنة متصلة، وكانوا مطاردين من الأمن ولم أجد أمامى سوى المجموعة الشيوعية اليونانية والتى كانت تعمل بنشاط وسط الجالية اليونانية فقط، كانت مجموعة مغلقة تماما على نفسها ولا تنفتح أبدا على المصريين، وإن كانت لها صلات ببعض المجموعات الأجنبية الأخرى، وذات يوم طلبوا منى أن أوزع بيانا يطالب بالإفراج عن المناضل الشيوعى الألمانى «تيلمان» وقد قضيت وقتا طويلا فى مناقشة مع ياناكاكس، مسئول هذه المجموعة، محاولا إقناعه بضرورة فعل شىء أكثر جاذبية للجماهير المصرية، لكنه رفض بشدة متمسكا بحذره وحرصه الشديدين ويمكنك أن تقول إننى تعلمت كثيرا من هذا الحرص، وغضبت وانسحبت أنا وعدد من الشباب من المجموعة اليونانية لكننى خرجت، وفى جعبتى كم كبير من الحذر، وقررت تأسيس منبر علنى أستطيع من خلاله أن ألتقى بعدد من المصريين، ولكى لا تعترض الحكومة أو سلطات الاحتلال أو أثير شكوكهما، قررت أن يكون هذا المنبر معاديا للفاشية وللحرب التى تعد لها ألمانيا، واتسع نشاط اتحاد أنصار السلام. وكان له فرعان، الأول فى القاهرة والثانى فى الإسكندرية، وقد كافحنا بشدة ضد الفاشية والنازية وأصدرنا العديد من المنشورات والكتيبات بالعربية والإنجليزية والفرنسية تدين الفاشية وتطالب بمقاطعة البضائع الألمانية، كما قمنا بمساندة الثورة الإسبانية ونظمنا حملات لجمع التبرعات المالية والعينية لها، وفى سينما ميامى أقمنا

احتفالا كبيرا لعرض فيلم «حصار برشلونة» المناصر للثوار الجمهوريين، وألقيت خطابا فى الاحتفال مؤيدا الجمهوريين الإسبان».

وقاطعته قائلا: «يقول يوسف درويش إن شابين من اتحاد أنصار السلام أحدهما مصرى اسمه مصطفى سافرا للقتال فى صفوف الجمهوريين الإسبان»، فقال: «هذا صحيح».

* * *

«ولم يكن كل هذا النشاط بلا هدف، كان هناك هدف غير معلن وهو التلامس مع عدد من المصريين أو الأجانب الذين يجيدون اللغة العربية كمقدمة لتأسيس تنظيم شيوعى».
بول جاكو
(فى حواره معى)

ويظل لغز بول جاكو محيرا، حتى بعد أن تحدثت معه فى مقهى اللوكسمبورج فى باريس وظللت أمتلك عديدا من الأسئلة. وبعدها بعام دخلت بالمصادفة إلى ذات المقهى ووجدته جالسا، لم يلتفت ولم تتغير ملامح وجهه وكأنه لا يعرفنى ولم يقابلنى أبداً، دهشت، وربما غضبت، وقمت لأسلم عليه فقام مرحبا ودعانى للجلوس معه. قلت له: ظننتك لا تريد الحديث معى. قال: أبداً كنت مشتاقاً للحديث معك. فلدى معلومات إضافية أريد أن أحكيها لك. فسألت: ولماذا تجاهلتنى؟ أجاب ببساطة: لقد تعلمنا منذ بداية عملنا ألا نبادر قادما بالسلام فقد يكون مراقبا من الأمن وعلينا أن نتأنى حتى يبادر هو. قلت: لكن الأوان فات ونحن فى باريس وأنت وأنا لا علاقة لنا بما يستوجب المراقبة هنا أو هناك؟ وأجاب فى هدوء وهو يقلب السكر فى فنجان النسكافيه: إنها مسألة مبدأ. وقد ظل هذا المبدأ مهيمنا على التنظيم الذى وضع بذوره فى التربة المصرية. فقد أخفوا ولزمن اسم التنظيم – ربما حتى يستكمل قوته – وأخفوا عن الأعضاء أنهم أعضاء فى تنظيم – إنه المبدأ المهيمن «ما لا ينفع يضر» وكان ذلك مختلفا عن معايير التنظيمات المصرية الأخرى التى ربما كانت منفتحة أكثر من اللازم فوقعت مفارقة استمرت طويلا.

المهم جلسنا ليكمل بول حكايته. وبدأ بعتاب فقد لمح أننى كتبت على الورقة التى أسجل فيها حواره «بول جاكوب»، وقال: اسمى «جاكو»، قلت هل الفارق يهم؟ قال: نعم لأن

البعض من خصومنا أضافوا الباء زاعمين أننى يهودى، أنا لست عنصريا ولا تهمنى عنصريتهم، لكن الحقيقة هى أن اسمى «جاكو» وأننى مسيحى. ثم أكمل بعد أن ذكرت له ما أذكره من حواره السابق: «وقفنا عند نشاط اتحاد أنصار السلام، والحقيقة أننا نشطنا نشاطا واسعا ففى بياناتنا وكتبنا هاجمنا الصهيونية هجوما عنيفا باعتبارها فكرة عنصرية وكتبنا أكثر من مرة عن رفضنا الشديد لقيام وطن قومى لليهود عى أرض فلسطين. وعندما حضرت لجنة من عصبة الأمم لاستطلاع رأى الشعب المصرى بشأن مشاريع تقسيم فلسطين أرسل الاتحاد اثنين من أعضائه اليهود، وهما يوسف درويش وريمون دويك، ليعلنا للجنة مساندتهما للشعب الفلسطينى وليسجلا رفضنا لفكرة قيام وطن لليهود على أرض هذا الشعب. وفى إحدى رحلاتى للخارج التقيت بالسياسى الهندى الشهير «كريشنامنون» وخلال حوارنا أبلغنى برغبة الزعيم الهندى نهرو فى مقابلة النحاس باشا وبعد عودتى رتبت هذه المقابلة عن طريق أحد أعضاء اتحاد أنصار السلام وهو عبد الفتاح الطويل (باشا) وتمت المقابلة ١٩٣٧. لكن ترتيب هذه المقابلة تسبب فى وقوع أول شرخ فى الاتحاد. فالأعضاء التروتسكيين جورج حنين وزملاؤه كانوا متشددين جداً، واحتجوا على أن ينظم الاتحاد مقابلة لنهرو مع سياسى برجوازى وانسحبوا من الاتحاد. ثم اشتعلت الحرب العالمية الثانية ولم يعد طبيعيا أن نستمر فى الحديث عن السلام العالمى بينما الحرب تعصف بالعالم، فأعلنا حل الاتحاد وأسسنا بدلا منه «جماعة الدراسات» معلنة أن هدفها هو تعريف الأوروبيين المقيمين بمصر وجنود جيش الاحتلال بأوضاع المجتمع المصرى وبمطالبه فى الاستقلال الكامل وجلاء القوات الأجنبية بعد الحرب. كانت الحدود قد أغلقت وتوقفت الاتصالات مع أوروبا ولم تعد مصادر الثقافة الأوروبية متاحة، ومن ثم كانت هناك فرصة للمثقفين الأجانب أن يتجهوا لدراسة الواقع المصرى فقمنا بإعداد دراسات جديدة عن الواقع المصرى منها: «الفلاح المصرى – تاريخ مصر – ثورة عرابى – نهر النيل.. إلخ».

هذا هو الهدف الظاهرى، لكن «بول» كان يواصل تحقيق حلمه الأهم وهو تدريب وتثقيف عدد من الكوادر ليكونوا قادرين على تأسيس وقيام تنظيم شيوعى مصرى، ويحكى «بول»: «كانت لى علاقات مع عدد من الإنجليز العاملين فى القوات البريطانية فى مصر منهم كابتن كلوجمان، وكان شخصا ممتازا ونشيطا وتعرفت عن طريقه إلى أستاذ

إنجليزى فى الجامعة المصرية، وكان هذا الأستاذ شيوعيا واقترحا إلى أن نصدر كتبا عن مصر وتاريخها بهدف تعريف جنود الاحتلال بمصر وكسبهم إلى صف القضية الوطنية المصرية. وكان أول كتاب أصدرناه باللغة الإنجليزية بعنوان «مصر الآن» وقد لقى رواجا كبيرا».

وفى هذه الأثناء كان «بول» قد التقط ثلاثة رجال هم الأكثر إخلاصا وثقافة واستعداداً وكان يدرس لهم «الماركسية» وعندما نضجوا ونضجت الظروف جمعهم «يوسف درويش – صادق سعد – ريمون دويك» ليلقنهم كل ما اختزن من معارف وحرص وأشواق وأحلام. وتركهم ليبدأوا هم تأسيس تنظيم أسموه «الطليعة الشعبية للتحرر»، أما هو فقد اكتفى بالتوجيه من بعيد. واكتفى بمتابعة نشاطه فى «جماعة الدراسات». ولم أزل وحتى الآن وكلما زرت باريس أذهب إلى ذات المقهى وأجلس إلى ذات المائدة وكأننى أواصل حوارى معه.